

تفسير البحر المحيط

. @ 123 @

الطرد الإبعاد بإهانة والطريد المطرود ، وبنو مطرود وبنو طراد فخذان من إياد . .
{ إِزَّامًا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ } إنما يستجيب للإيمان الذين يسمعون
سماع قبول وإصغاء كما قال : { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ
أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ } ويستجيب بمعنى يجيب . وفرق الرمانى بين أجاب
واستجاب بأن استجاب فيه قبول لما دعي إليه . قال : { فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ }
{ فَاسْتَجَابْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ } وليس كذلك أجاب لأنه قد يجيب
بالمخالفة . .

قال الزمخشري يعني أن الذين تحرص على أن يصدقوك بمنزلة الموتى الذين لا يسمعون ، وإنما
يستجيب من يسمع كقوله { إِزَّامًا لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى } . .
وقال ابن عطية هذا من النمط المتقدم في التسلية ، أي لا تحفل بمن أعرض فإنما يستجيب
لداعي الإيمان الذين يفهمون الآيات ويتلقون البراهين بالقبول فعبر عن ذلك كله بيسمعون .
إذ هو طريق العلم بالنبوة والآيات المعجزة . وهذه لفظة تستعملها الصوفية إذا بلغت
الموعظة من أحد مبلغاً شافياً قالوا استمع { وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ }
الظاهر أن هذه جملة مستقلة من مبتدأ وخبر ، والظاهر أن الموت هنا والبعث حقيقة وذلك
إخبار من الله تعالى أن الموتى على العموم من مستجيب وغير مستجيب ، يبعثهم الله فيجازيهم
على أعمالهم وجاء لفظ الموتى عاماً لإشعار ما قبله بالعموم في قوله { إِزَّامًا
يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ } إذ الحصر يشعر بالقسم الآخر وهو أن من لا يسمع سماع
قبول ، لا يستجيب للإيمان وهم الكفار . وصار في الإخبار عن الجميع بالبعث والرجوع إلى
جزاء الله تعالى ، تهديد ووعيد شديد لمن لم يستحب وتطافرت أقوال المفسرين أن قوله
والموتى يراد به الكفار . سموا بالموتى كما سموا بالصم والبكم والعمي وتشبيه الكافر
بالميت من حيث إن الميت جسده خالٍ عن الروح ، فيظهر منه النتن والصدید والقبح وأنواع
العفونات . وأصلح أحواله دفنه تحت التراب . والكافر روحه خالية عن العقل فيظهر منه
جهله بالله تعالى ومخالفاته لأمره وعدم قبوله لمعجزات الرسل ، وإذا كانت روحه خالية من
العقل كان مجنوناً فأحسن أحواله أن يقيّد ويحبس . فالعقل بالنسبة إلى الروح كالروح
بالنسبة إلى الجسد . وإذا كان المراد بالموتى هنا الكفار فقليل البعث يراد به حقيقته من
الحشر يوم القيامة والرجوع هو رجوعهم إلى سطوته وعقابه ، قاله مجاهد وقتادة . .

وعلى هذا تكون هذه الجملة متضمنة الوعيد للكفار . وقيل الموت والبعث حقيقة والجملة مثل لقدرته على إلجائهم إلى الاستجابة بأنه هو الذي يبعث الموتى من القبور يوم القيامة { ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ } للجزاء ، فكان قادراً على هؤلاء الموتى بالكفر أن يحييهم بالإيمان وأنت لا تقدر على ذلك قاله الزمخشري . وقيل الموت والبعث مجازان استعير الموت للكفر والبعث للإيمان . .

ف قيل الجملة من قوله والموتى يبعثهم ا مبتدأ وخبر أي والموتى بالكفر يحييهم ا
بالإيمان . .

وقيل ليس جملة بل الموتى معطوف على الذين يسمعون ، ويبعثهم ا جملة حالية . والمعنى إنما يستجيب الذين يسمعون سماع قبول ، فيؤمنون بأول وهلة والكفار حتى يرشدهم ا تعالى ويوفقهم للإيمان ، فلا تتأسف أنت ولا تستعجل ما لم يقدر . .
وقرء ثم إليه يرجعون بفتح الياء من رجع اللازم .